



ISSN: 1817-6798 (Print)

Journal of Tikrit University for Humanities

available online at: www.jtuh.org/
JTUH
 جامعة تكريت للعلوم الإنسانية
 Journal of Tikrit University for Humanities
Raeed Hazim Hasan

Tikrit University/ College of Arts

 * Corresponding author: E-mail :
ra3adhazam@tu.edu.iq
Keywords:

Abbasid Caliphate.

Economic life.

Poetry.

Impact.

Al-Mutawakkil.

Ali bin. Al-Jahm

ARTICLE INFO**Article history:**

Received 15 July 2024

Received in revised form 25 July 2024

Accepted 17 Aug 2024

Final Proofreading 5 Aug 2024

Available online 10 Aug 2024

E-mail t-jtuh@tu.edu.iq
 ©THIS IS AN OPEN ACCESS ARTICLE UNDER
 THE CC BY LICENSE

<http://creativecommons.org/licenses/by/4.0/>


Impact of Economic Life on the Poetry of Ali bin Al-Jahm During the Reign of Al-Mutawakkil

A B S T R A C T

Economic life had a great impact on the poetry of the poets of the Abbasid state, and among these poets was the poetry of the poet Ali bin Al-Jahm during the era of Jaafar Al-Mutawakkil. Ibn al-Jahm was chosen for two main reasons: the first is due to the stylistic characteristic that distinguished his poems, which is the striking pictorial character that represented a phenomenon in his poetry, and he was one of the distinguished in it. The second is represented by his influence by the aspects of economic life in his reign, whether materialistic, such as: ways of living, methods of earning, resources and the treasury of that era, and the luxury of the caliphate, and he is one of the poets committed to his poetry

DOI: <http://doi.org/10.25130/jtuh.31.8.2024.03>

أثر الحياة الاقتصادية في شعر علي بن الجهم في عهد المتوكل

رائد حازم حسن / كلية الآداب / جامعة تكريت

الخلاصة:

إنَّ الحياة الاقتصادية لها أثر كبير في شعر شعراء الدولة العباسية، ومن هؤلاء الشعراء شعر الشاعر علي بن الجهم في عهد جعفر المتوكل. وقد وقع الاختيار على ابن الجهم لسببين رئيسيين: أولهما يعود إلى السِّمة الأسلوبية التي ميّزت قصائده، وهي طابع التصوير اللَّافِت الذي مثَّل ظاهرةً في شعره، وكان من المُتميّزين فيه. وثانيهما يتمثَّل في تأثُّره بمظاهر الحياة الاقتصادية في عصره، سواء أكانت المادية، نحو: أساليب العيش وطرق الكسب، والموارد وبيت المال في ذاك العصر، وتُرف الخلافة، وهو من الشعراء

المُلتزمين في شعرهم.

منهج البحث:

اعتمد الباحث على المنهج الوصفي التحليلي، من أجل تحقيق الأهداف المرجوة عبر البحث العلميّ الجادّ، وذلك على النحو الآتي:

1. المنهج الوصفي: القائم على تتبع النصوص الشعرية للجهم والتي أبرزت صورة الحياة الاقتصادية وتجميعها من مظانها ذات الصلة، سواء الأدبية أو التاريخية.
2. المنهج التحليلي: واعتمد فيه بشكلٍ أساسي على تحليل تلك النصوص وبيان الأثر منها المستفاد والمتعلق بهذا الموضوع. أما منهجي في كتابة هذا البحث فيقوم على تحليل النصوص الشعرية واستخلاص النتائج منها، ومن ثم فقد كان ديوان علي بن الجهم المرجع الأساسي للحكم على شعر الشاعر، إلا أنني لم أغفل الرجوع إلى بعض المصادر والمراجع التي أعاننتي كثيراً في هذا المجال . وبُغية الوصول إلى غاية البحث المرجوة شكّلت الدراسة من تمهيد وثلاثة مطالب، وذلك على النحو الآتي:

التمهيد: التعريف بمصطلحات البحث.

أولاً: التعريف بالشاعر علي بن الجهم.

ثانياً: نبذة عن الحياة الاقتصادية في عهد المتوكل.

المطلب الأول: الولاء التام للعباسيين

المطلب الثاني: أساليب العيش وطرق الكسب.

المطلب الثالث: الموارد وبيت المال في ذاك العصر.

المطلب الرابع: ترف الخلافة.

الخاتمة: تضمنت أبرز النتائج، والتوصيات.

فهرس المصادر والمراجع.

الكلمات المفتاحية: الدولة العباسية، الحياة الاقتصادية، شعر، أثر، المتوكل، علي بن الجهم
المقدمة:

بدأ العصر العباسي بسقوط الدولة الأموية في الشام سنة (132هـ / 749 م) وانتهى بسقوط بغداد في قبضة التتار سنة (656هـ / 1258م) وإذا كانت دولة بني أمية عربيةً أعرابيةً فإنّ الدولة العباسية اتخذت بُعداً أكثر اتساعاً واشتملت على أجناسٍ أخرى عديدة وعمّت في حضارتها مظاهرُ البذخ والتّرف. ونتج عن

احتكاك العرب بتلك الأجناس الكثير من التغيير في أنماط الحياة الاجتماعية والاقتصادية وغيرها. (ضيف، 1995، 73 / 3)

وعَرَفَ الشَّعر العربي في هذا العصر على وجه الخصوص فنوناً وأغراضاً لم يألّفها من قبل، كالغزل بالمتوكل والخمرة والميل إلى الأوصاف الحضريّة والعزوف عن العصبية والبداوة، وزالت في الكثير منه آثار التقليد والاحترام للأقدمين وحلّ مكانها النّفور، وحلّ التّصريح وقلة الاكتراث بديلين عن الكناية والتّستّر، واستعملت فيه الأوزان القصيرة ونُظمت المقطعات وظهرت القوافي المهجورة. (فروخ، 1981، ص33)

وأصبح الشاعر (عليّ بن الجهم) في خلافة المتوكل سنة (232هـ)؛ من أقرب الشعراء إلى الخليفة، يتّخذ جليساً ونديماً، ويسرّ إليه بما يدور بينه وبين جواريه ومحظياته، ويغدق عليه أمواله وجوائزه. وكان لعلّي بن الجهم غزل كثير أجاد فيه تصوير لواعج حبّه، وقد برع في مقدّماته الغزليّة الرّقيقة، ولاسيّما في مستهلّ مدائحه للخلفاء. ومما ذائع من غزله في صدد مديحه للمتوكل قوله: (ابن الجوزي، 1997؛ المستعصمي، 2015، 278 / 7):

عُيُونُ الْمَهَا بَيْنَ الرُّصَافَةِ وَالْجِسْرِ جَلَبْنَ الْهَوَى مِنْ حَيْثُ أَذْرِي وَلَا أَذْرِي

وكان المتوكل يأنس بعلّي بن الجهم ولا يكتمه شيئاً من أمره، وفي ذلك يقول ابن الجهم: وجّه إليّ المتوكل فأتيته، فقال لي: رأيت النّبي -صلى الله عليه وسلّم- السّاعة في المنام، فقمْتُ إليه فقال لي: تقوم إليّ وأنت خليفة؟ فقلتُ له: أبشر يا أمير المؤمنين، أمّا قيامك إليه فقيامك بالسّنة، وقد عدّك من الخلفاء. قال: فسُرّ بذلك. (ابن عساكر، 1995م، 72 / 159)

ومن الّلافت للنظر أنّ شعر ابن الجهم خلا من مظاهر البداوة؛ فلم يُعثر على أيّ مظهر بدويّ أثناء الاطّلاع على ديوانه وفحصه، وأمّا قوله (الجهم، د.ت، ص117):

أَنْتَ كَالْكَأْسِ فِي حِفَافِكَ لِلْوَدِّ وَكَالتَّيْسِ فِي قِرَاعِ الْخُطُوبِ
أَنْتَ كَالدَّلْوِ لَا عَدِمْنَاكَ دُلُوءًا مِنْ كِبَارِ الدَّلَا كَثِيرِ الذَّنُوبِ

فقد علّق على هذين البيتين مُحَقِّقُ الدِّيوان بقوله: (ذكر الشّيخ محيي الدّين بن عربيّ في: محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار أنّ عليّاً بن الجهم مدح المتوكل بقصيدة منها هذان البيتان في خبر يظهر عليه الوضع. والذي نراه -إنّ صحّت نسبة البيتين له- أنّه قالهما في أحد مجالس المتوكل للعبث مع بعض النّدماء أو المُضحكين)، وما يؤيّد هذا الرّأي عدم العثور على أشعار أخرى في مضمونٍ مُقارب، بل على العكس من ذلك فقد فاضت أشعارُ ابن الجهم بمظاهر الحضارة، وأجواء المدينة. (الجهم، د.ت، ص117)

التمهيد:

أولاً: التعريف بالشاعر عليّ بن الجهم

هو: علي بن الجهم (ابن عبد البر، 1992م، 1/ 261)، بن بدر بن مسعود بن أسيد بن أذينة بن كزار بن بكعب بن مالك بن عتبة بن جابر بن الحارث بن عبد البيت بن الحارث بن سامة بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة يكنى أبا الحسن وأصله من خراسان. وهو شاعر مطبوع عذب الألفاظ سهل الكلام مقتدر على الشعر. كان إبراهيم الحربي يصفه ويقرظه، ويقال إن إبراهيم هو ابن داية علي بن الجهم. ومدح علي المعتصم والواثق وجالس المتوكل، ومات سنة تسع وأربعين ومائتين بناحية حلب بعد أن خرج متوجّهاً للغزو فقتله أعراب من كلب. (المرزباني، 1982م، ص 286؛ الخطيب البغدادي، 2002م، 166 / 8)

له ديوان شعر مشهور، وكان جيد الشعر عالماً بفنونه، وله اختصاص بجعفر المتوكل، وكان متديناً فاضلاً، وكان - مع انحرافه عن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، وإظهاره التسنن - مطبوعاً مقتدراً على الشعر عذب الألفاظ. وكان من ناقلة خراسان إلى العراق ثم نفاه المتوكل إلى خراسان في سنة اثنتين وثلاثين، وقيل تسع وثلاثين ومائتين، لأنه هجا المتوكل، وكتب إلى طاهر بن عبد الله بن طاهر بن الحسين أنه إذا ورد عليه صلبه يوماً، فوصل إلى شاذياخ نيسابور، فحبسه طاهر ثم أخرجه فصلبه مجرداً نهاراً كاملاً، فقال في ذلك (ديوانه: ١٧١، ٢١٥)

لم ينصبوا بالشاذياخ صبيحة ال
صوبوا بحمد الله ملء قلوبهم
إثنين مسبوقاً ولا مجهولاً
شرفاً وملء صدورهم تبجيلاً

وهي أبيات كثيرة مشهورة، ثم رجع إلى العراق ثم خرج إلى الشام، وبعد ذلك ورد على المستعين كتاب من صاحب البريد بحلب أن علي بن الجهم خرج من حلب متوجّهاً إلى العراق، فخرجت عليه وعلى جماعة معه خيل من بين كلب، فقاتلهم قتالاً شديداً، ولحقه الناس وهو جريح بأخر رمق، (ابن خلكان 356) فكان مما قال (ديوانه: ١٧٠):

أزِيدَ فِي اللَّيْلِ لَيْلٌ أَمْ سَأَلَ بِالضُّبْحِ سَائِلٌ

ثانياً: نبذة عن الحياة الاقتصادية في عهد المتوكل:

تتعدّد تعريفات (الاقتصاد) اصطلاحاً، إلّا أنّها تدور حول كونه علماً يدرُس العلاقة بين حاجات الإنسان وموارده؛ لتحقيق أكبر إشباع لهذه الحاجات بالاستخدام الأمثل لتلك الموارد. (المصري، 1993م، ص12). ونظراً لما للكلمة (اقتصاد) من ارتباط وثيق الصلة بالحياة العامة بكلمة "مادة" أو "مادي"، فقد ذهب كثير من الاقتصاديين إلى إضفاء الصفة الاقتصادية على كلّ ما يمتّ إلى الوقائع المادية (الحماض، 1995م، ص12)

والمتوكل هو: جعفر المتوكل بن محمد المعتصم بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن عبد الله المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، وُلد المتوكل سنة سبع ومئتين، وقيل خمس، وبويع بسر من رأى سنة اثنتين وثلاثين ومئتين، وكان أسمر، حسن العينين، نحيف الجسم، خفيف العارضين، إلى القصر أقرب، كنيته أبو الفضل، وأمه أم ولد يقال لها شجاع، من سراوات النساء سخاء وكرماً، وهو عاشر الخلفاء العباسيين، وقد بُويع بالخلافة بعد موت أخيه هارون الواثق بمشاورة في ذلك سنة 232 هـ (ابن عساكر، 1995م، 157 - 158)، وهو بذلك ضمن الخلفاء العباسيين بالترتيب.

ولي جعفر المتوكل فأظهر الله السنة وفرج عن الناس (الذهبي، 2000، 5/ 1049)، وتكلم بها في مجلسه، وكتب إلى الأفاق برفع المحنة وإظهار السنة ونصر أهلها. وقال علي بن الجهم: كانت للمتوكل جمّة إلى شحمة أذنيه كأبيه وعمه. (ابن تغري، د.ت، ص 1/ 155)

ومثلت بغداد في العصر العباسي العاصمة الاقتصادية للعالم أجمع، وشكلت الإيرادات والضرائب، والغنائم الناتجة عن الغارات العسكرية على الأراضي البيزنطية موارد رئيسة للخزانة، كما لعبت التجارة دوراً مهماً في نمو الإمبراطورية؛ وكانت أسواق بغداد تعجّ بمختلف السلع والبضائع، وتنتشر فيها المؤسسات المالية الحديثة لتقديم الخدمات المصرفية.

أفضت تلك الظروف جميعها إلى تحقيق ثراء فاحش امتلأت عبره خزائن الخليفة جعفر المتوكل ومن قبله الرشيد بالذهب والفضة، وبلغت الدولة غايتها رفاهاً وانتعاشاً. ولا يمكن بحال إغفال أهمية الزراعة التي كانت من أكبر موارد بيت المال؛ الأمر الذي جعلها تحظى بعناية خاصة في أرجاء الدولة كلها؛ فقدّمت المساعدات للمزارعين وجرى تشجيعهم، كما أصبحت الصناعة بأنواعها وفنونها عنصراً مهماً من عناصر الحضارة في دولة المتوكل، ومورداً رئيساً لخزينة بيت المال. وكانت الصناعة على أنواع: معدنية وحيوانية ونباتية. وتمتعت أراضي الدولة العباسية بقدر كبير من المعادن المدفونة في أتربتها. واتسع نطاق التجارة في عهد المتوكل اتساعاً كبيراً بفضل امتداد الطرق وصلاحياتها لسير القوافل، محفوفة بالأمن؛ حتى اتّصل غرب البلاد بشرقها وشمالها بجنوبها.

وعليه، فقد شهد العصر العباسي نهوضاً وتقدماً في شتى العلوم والفنون، وانتقلت بدورها إلى مجالس الخلفاء، التي اشتملت على مادّة علمية دسمة، فسبقت تلك المجالس مرحلة بناء المدارس العلمية التي بُنيت برغبة وأمر من الخلفاء إبان ازدها الحياة الاقتصادية.

ولما اتسعت الدولة العباسية وكثرت أقاليمها وتزايدت مواردها المالية، انعكس ذلك على المجتمع بما فيهم العلم والعلماء، وأصبح الخليفة يختار المتميزين من الأدباء والشعراء والمؤرخين والفقهاء لمجالسته في أوقات معينة. وهدفت تلك المجالس إلى سماع أخبار العرب ونوادرهم وبطولاتهم، والاطلاع على الأسرار العربية وآدابها، وأقبل الخلفاء على الشعر والشعراء والأدباء والأدباء -ومنهم علي بن الجهم- وأغدقوا عليهم

الأموال الطائلة، وخلقوا بينهم المنافسة في مدح الخلفاء -ومنهم جعفر المتوكل- للتقرب من مصادر المال والسلطان. (خماس، د.ت، ص2)

وكانت مجالس الخلفاء رديفةً لحلقات العلم التي يعقدها العلماء والفقهاء والمحدثون والوعاظ في المساجد والمدارس كالمدرسة المستنصرية والمدرسة النظامية وغيرها. (خماس، د.ت، ص1).
وفى وصف الورد وتهاديه ووصف شذاه العطر الذي يشفى القلوب الكليمة. وله أشعار مختلفة في وصف اللهو والملاهي، ومن قوله في وصف مجلس أنس (الديوان: 105):

الورد يضحك والأوتار تصطخب والنأي يندب أشجانا وينتخب
والراح تعرض في نور الربيع كما تجلى العروس عليها الدرّ والذهب

وقد مضى يصور نشوته بالراح وبالورد وبالغناء. وأنشدنا في الفصل الماضي قطعة من وصفه لقصر من قصور المتوكل ونافورته العجيبة، وكذلك وصفه للعبة الشطرنج وله قصيدة جيدة في وصف سفينة (الديوان: 114) وجعلته نكبته يكثر من التأمل في الحياة وفي سلوك الناس وأخلاقهم وأصنافهم، مما جعل تجاربه تتسع وجعله ينثر منها كثيرا في أشعاره من مثل قوله (الديوان: 20)

ومن طلب المعروف من غير أهله أطال عناء أو أطال تنذما
ومن سامح الأيام يرض حياته ومن منّ بالمعروف عاد مذمما

وواضح مما أسلفنا من أشعار ابن الجهم أنه لم يكن ممن يتكلفون في أشعارهم ولا ممن يكثر من ترصيعها بأصناف البديع وأصدافه، ومما لا ريب فيه أن ملكاته كانت خصبة، وكان كثيرا ما يلم بمعان دقيقة وصور طريفة مع سهولة الألفاظ ومع شفافيتها وصفائها ومع نصاعتها ورسانتها ومع جمال الجرس والأداء.

المطلب الأول

الولاء التام للعباسيين

نسلط الضوء على جانب واسع من جوانب علاقات الشاعر الاجتماعية لاسيما وأن للتحويلات الاجتماعية والسياسية والثقافية التي حدثت في العصر العباسي الأثر في الشعر من حيث البواعث، والموضوعات فقد بقي موضوع الشعر في هذا العصر كما كان. لقد انحاز علي بن الجهم للعباسيين خصومهم، وظل موقفه ثابتا طيلة حياته. وقد وقف ضد المعتزلة والشيعة وأهل الذمة، ولم يرتح لموقف الخليفة الواثق من أهل الحديث وفرح بقدوم المتوكل إلى سدة الخلافة لأن أفعاله وأهواءه جاءت على هوى المتوكل، وقد أوجع الشعراء والندماء من مختلف الأطياف السياسية (المعتزلة والشيعة وأهل الذمة والنصارى) صدر المتوكل فسجن علي بن الجهم ونفاه وصلبه وصادر أمواله إلا أن علي بن الجهم ظل مواليا للخلافة العباسية إلى أن أدرسته المنية.

وهو من الذين انشقوا على طاعة الخليفة وأحدث الفتن مثل بابك الخُرَّمي، ومازيار بن قارن . فقد حث على محاربتهمما وقتلهمما، فكان له ما أراد، وبين أن ما لحق بهما من قتل وصلب ليس إلا جزاء على فعلتهما وعلى الفتنة التي أحدثاها.

وقد سجل الشاعر انتصارات الخليفة المعتصم على الروم، فقد ذكر الشاعر وقعة عمورية وما جرى بها من بطولات. وكذلك انتصار جيش الخلافة على الزط . وظل الشاعر مواليا للخلافة العباسية، فعندما نكَب الخليفة محمد بن عبد الملك الزيات والوزير عمر بن فرج الرخجي سَوَّغ علي بن الجهم فعل الخليفة لأن الخليفة إنما نكبهما من أجل الرعية وانتقاماً لها.

لقد استحوذت الخلافة العباسية على أفئدة عدد ضخم من الشعراء، فما أن استقامت الأمور للعباسيين حتى بدأت وفود شعراء الأحزاب السياسية التي كانت تناوئ هذه السلطة تغد على قصر الخلافة مهنئة، وقد كانت طبائع الشعراء في الحقبة العباسية مضطربة ومتلونة، إذ مضى بعض الشعراء في مدح بني العباس ، فازداد عددهم كثرة بحيث لا نجد خليفة عباسي إلا وقد وفد عليه عدد كبير من الشعراء، وإذا كان الشعراء في بداية تكوين الدولة العباسية قد حرَّضوا العباسيين على استئصال شأفة خصومهم، فقد مضوا يعالجون نظرية العباسيين في الخلافة.

وكان علي بن الجهم مخلصاً للخلافة العباسية، فخوراً بالتشيع لها يعتقد أن بني العباس أولى الناس بسياسة الأمة وتولي أمورها، لا تصلح إلا عليهم، ولا تنقاد إلا إليهم ومن هنا نراه يفخر بخراسانيته سياسة، كما يفخر بقرشيته نسباً، وذلك أن خراسان كانت موطناً لأبائه حيناً من الدهر، وأهل خراسان هم الذين نصروا الدعوى العباسية وحملوا رايتها وحاربوا بني أمية، وكان اعتماد بني العباس عليهم، وفي مذهبه السياسي يقول للمتوكل (الديوان: 26):

مذهبي واضح وأصلي خراسا ن وعِزِّي بِعِزِّكُمْ مَوْصُولُ

ويعلن في صراحة صريحة أنه من شيعة العباسيين وأنه خراساني من أصحاب الرايات السود شعار العباسيين، أو كما يسميها الخرق السوق (الديوان: 34)

نحن أشياغكم من أهل خراسا ن أولو قُوَّةٍ وَبَأْسٍ شَدِيدِ

نحن أبناء هذه الخرق السو د وأهل التشيع المحمود

وقد استعان الشاعر بالآيات القرآنية وجورها لخدمة أهدافه وأغراضه فالخلافة العباسية ميراث ورثوه عن رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ؛ لأنهم الأحق بذلك بحكم قرابتهم القريبة من رسول الله عليه السلام، يقول من قصيدة له في مدح المعتصم : (الديوان: 11)

أما ومَحَرَّمِ الْبَلَدِ الْحَرَامِ يميناً بين زمزم والمقام

وقد ألح علي بن الجهم على التذكير بالقرابة التي تربط الخلفاء العباسيين بالرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم، وأن الله اختارهم ليُعز الإسلام بهم، وأن خلافتهم قضاء وقدر من الله، يقول من قصيدة له في مدح المتوكل : (الديوان: 36-37)

يا "أبا الفضل" يا بن عم رسول	الله أنـت المؤمـل المحـذور
قدر الله أن يُعزُّ بِكَ الإسـ	والأمـر كلـه مقـدور
ثم ولاك ناصراً لك مولا	ك فَنِعْمَ المولى وَنِعْمَ النَّصير
فانتقم يا خليفة الله ممن	لم يزل قلبه عليك يُفـور

إنَّ حياة الشاعر كانت مليئة بالأحداث العجيبة منذ الطفولة وكان والده قد تولى العديد من وظائف الدولة وذلك بتعاقب الخلفاء، هذا ما يدل على أنه كان لأسرته بعض الجاه والوجاهة، لذا نشأ الشاعر في حياة تتميز بطلب العلم، وقد حضر الكتاتيب وإنه كان مشاغبا في طفولته كثير الحركة حتى انزعج والده من كثرة لعبه وشغفه بالبيت، فطلب من معلمه أن يسجنه ففعل، فاغتاظ الشاعر من والده وكتب إلى أمه مستغيثا (الديوان: 212)

يا أمتاه أفديك من أم	أشكو إليك فظاظة الجهم
قد سَرَح الصَّبيانُ كُلَّهُم	وبقيت محصوراً بلا جرم

يبدو أن أولى محاولات الشاعر كانت من جنس الهجاء التي تتخللها العتاب من الأب والشكوى من سوء المعاملة إلى الأم وهذا مما يدل على أن لسان الشاعر سيكون من حدة سيكتوي الخصوم بنارها لاحقا !! والملاحظ من هذه المحاولة البدائية للشاعر أنه يستعطف أمه ويشكو من أبيه في أسلوب سهل ورقيق ولاسيما وأن الشاعر استطاع أن يعبر عن عواطفه حيال الحدث.

مع ازدياد خصوم الشاعر تنوعوا وأن الألوان لكي يتخلصوا منه ويقطعوا بينه وبين الخليفة، وبدأ كل منهم يذكره بالقبيح عند المتوكل ويشوهون صورته، والعجيب في الأمر أن الشاعر كان على العلم بخصومه وأعدائه الذين دبروا له المكائد وفسدوا عليه العلاقة مع المتوكل إذ يقول الشاعر في خصومه ويدعو الله عليهم باللعنة بما لا يحبهم الخليفة (الديوان، 60)

عليهم لعنة الله إبتداءً	وعوداً في الصّباح وفي المساء
-------------------------	------------------------------

وربما لم تسنح الفرصة للشاعر أن يشير إلى جميع أعدائه في هذا البيت الشعري وإنما اكتفى بالإشارة إلى البعض منهم على اختلاف دينهم وفكرهم ومذهبهم، فهذا يدل على التعاون والمشاركة في شيء أو أمر معين بين أعداء الشاعر من أجل خلق المشاكل له وإفساد الأيام عليه، فالدعاء واضح كل الوضوح وإن كان

ضمناً ولاسيما أن نكاء الشاعر كان يدفع به إلى قلب الوضع على الأعداء والخصوم عن طريق وصفهم بصفات تدل على عدائهم بشكل أو آخر للخليفة والدعوة العباسية،

كانت منزلة الشعراء البارزين لدى رجال الدولة عرضة للمنافسة والضعينة بما يمكنهم حسادهم فإنهم غالباً ما يتعرضون إلى الغض من منزلتهم، فيدفعهم ذلك إلى العتاب، ومن الأمثلة الرائعة للعتاب ما قام به الشاعر من عتاب للخليفة المتوكل فقد دفعه جلده وكبرياؤه، وقوة شخصيته في بداية سجنه إلى قول (الديوان: 92):

يَا أَحْمَدُ بْنَ أَبِي دُوَادٍ إِنَّمَا	تُدْعَى لِكُلِّ عَظِيمَةٍ يَا أَحْمَدُ
بَلِّغْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَدَوْنَهُ	خَوْضُ الْعِدَى وَمَخَافُ لا تَنْقُدُ
أَنْتُمْ بَنِي عَمِّ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ	أُولَى بِمَا شَرَعَ النَّبِيُّ مُحَمَّدُ
مَا كَانَ مِنْ حَسَنٍ فَأَنْتُمْ أَهْلُهُ	طَابَتْ مَغَارِسُكُمْ وَطَابَ الْمَحْتَدُ
أَمِنْ السَّوِيَّةِ يَا ابْنَ عَمِّ مُحَمَّدٍ	خَصَمٌ تُقَرِّبُهُ وَآخَرُ تُبْعِدُ
إِنَّ الَّذِينَ سَعَوْا إِلَيْكَ بِبَاطِلٍ	أَعْدَاءُ نِعْمَتِكَ الَّتِي لَا تُجَحَدُ
شَهِدُوا وَغَبْنَا عَنْهُمْ فَتَحَكَّمُوا	فِينَا وَلَيْسَ كَغَائِبٍ مَنْ يَشْهَدُ

تعددت البواعث في العصر العباسي للإقصاء والإبعاد بين الناس من غير سبب، فالبواعث كانت وليدة عوامل سياسية واجتماعية انعكست آثارها على رجال الدولة بالدرجة الأساس. وعلى الرغم من أن عتاب الخلفاء ليس جديداً إلا أن البواعث كانت جديدة ، وأسلوب الشاعر فيه يميل إلى الرقة، والوضوح، ويمكن أن نعد مشروعية العتاب، وسابق الصلة بين الشاعر والخليفة من أسباب نجاح الشاعر في إيراد ما يسوغ عتابه ولاسيما بعد التحولات السياسية والاجتماعية.

يشكو الشاعر من حاله ومما آل اليه الوضع به باطلا دون سبب، إذ دفع به ذلك إلى عتاب الخليفة عتاباً لا يخلو من المخاشنة واللوم، ذلك لأنه خالف الشريعة وهو أولى الناس بالأخذ بأحكامها، فاستمع إلى أقوال أحد الخصمين وأصم أذنيه عن سماع كلام الآخر، مما جعله يحيد عن الطريق الأرشد، وقد اتخذ الشاعر العتاب وسيلة لإسماع صوته إلى الخليفة بعد أن حالت دونه و دون المتوكل الموانع. (الباشا، 190) ويركز الشاعر على الجانب الديني عند محاولته معاتبة الخليفة من أجل أن يكون العتاب أشد وقعاً على المعتبر عليه من جانب والمتلقي من جانب آخر، فالخليفة ابن عم الرسول محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم فأحق به أن يكون عدلاً ولاسيما وأنه لم ولن يكون خصماً له وأن ما قيل عنه باطل غير حق، فهم أعداء نعمته أي نعمة الخليفة، فالشاعر عندما يشكو حاله ووضعه لا يهمل بقاءه في السجن جعله

يتجه إلى مدح الخليفة في قصائده العتابية دون المساس بالاعتذار والاستعطاف حتى يجعل الخليفة يحس به وبنكته، وفي قوله: (الديوان/ 149):

فلا زالت الأرض معمورة تبوأْتَ بعدك قعر السجو
بعمرك يا خير عمارها ن وقد كنتُ أرثي لزوارها

كأن الشاعر أراد من خلال هذه القصيدة أن يأتي ببعد آخر في قصائده العتابية، فإلى جانب العتاب والشكوى يمهد الشاعر للاعتذار والإفصاح عن ندمه وحزنه لما آل إليه الوضع فهو يمدح الخليفة محاولاً تذكير الخليفة بنفسه ووضعه في قعر السجن بعيداً عنه وعن سلطانه وكأن الشاعر أراد من توظيف كلمة القعر أن يلفت نظر الخليفة إلى وضعه واليأس من عفوه ومغفرته، وفي مثال آخر يتخذ الشاعر من الشيب الذي اشتعل في رأسه منطلقاً للإفصاح عن همومه ومشاكله قائلًا (الديوان: 196)

حَسَرْتُ عَنِّي الْقِنَاعَ ظُلُومٌ وَتَوَلَّيْتُ وَدَمْعُهَا مَسْجُومٌ
أُنْكُرْتُ مَا رَأَتْ بِرَأْسِي فَقَالَتْ أَمْشِيْبٌ أَمْ لُؤْلُؤُ مَنْظُومٌ
قُلْتُ شَيْبٌ وَلَيْسَ عَيْباً فَأَنْتَ أَلَّةٌ يَسْتَثِيرُهَا الْمَهْمُومُ
وَإِكْتَسَتْ لَوْنٌ مَرِطُهَا ثُمَّ قَالَتْ هَكَذَا مَن تَوَسَّدَتْهُ الْهُمُومُ
لَيْسَ عِنْدِي وَإِنْ تَغَضَّبْتَ إِلَّا طَاعَةٌ حُرَّةٌ وَقَلْبٌ سَلِيمٌ
وَإِنْتَظَارُ الرِّضَى فَإِنَّ رِضَى السَّاءِ دَاتٍ عِزٌّ وَعَتَبُهُمْ تَقْوِيمٌ

فهذه الأبيات تمثل شكوى الشاعر من حاله في السجن والذي أدى به إلى الشيب واشتعال الرأس شيباً إذ أنه لا يرى في ذلك مشكلة أو عيباً لأن بياض الشعر إنما جاء حزناً وكدرًا على ما كان فيه من الغبن. وهناك نسق جديد للشاعر يمهد فيه للاعتذار وإن لم يصرح بذلك فهو على الرغم من عدم اقترافه ذنباً فهو ملزم بالقبول والرضى لأن رضى الخليفة إنما عزّ وتعلية شأن، فهو يقر بذنبه بشكل غير مباشر ويعمد الشاعر إلى ذكر نسب الخليفة الذي يعود إلى الرسول محمد صلى الله عليه وسلم في قصائده العتابية كثيراً، وكأنه كان صادقاً لمذهبه الديني مدافعاً عن فكره حتى ولو كان مظلوماً يحس بالغبن.

إنّ الشعر يرفض السلطة ويفرض الواقع الذي يعيش فيه الشاعر من خلال غياب الموضوع الحقيقي أو الواقعي، ونجد هذا الغياب في معظم قصائده التي تحتوي الشكوى والعتاب مكتفياً بالاستبدال والاستدلال للموضوع الرئيس عن طريق التحليل والدراسة، وأن هذا الغياب الذي استأثر بالذات الشاعرة لا يعني عدم وجوده الكينوني والاجتماعي، فهو يمارس وعيه لذاته، ويتواصل في الزمان وينتقل في المكان بشكل ما، أو

بآخر، متقطعاً مع الآخر الذي يسعى إلى إلغائه، أو وضعه في دائرة الصمت فالغياب ليس معناه العدم.
(خرماش: 1995، 104).

المطلب الثاني

أساليب العيش وطرق الكسب

لا شك أنَّ العصر العباسي من العصور الإسلامية الزاهية التي تألّقت فيها الحضارة الإسلامية، فبدت حواضر الخلافة في أفضل صورها، فنلحظ شدة التعالق بين تلك الحضارة المترفة، والحياة الاقتصادية في ذلك العصر (اليقوبي، د. ت، ص 253) ولما كان الشعر مرآة عصره، وديواناً مصوراً لكل تفصيلاته (الثعالبي، د. ت، ص 23) فقد اخترنا ديوان الشاعر العباسي (علي بن الجهم)؛ لنلقي نظرات عابرة على صورة الحياة الاقتصادية في زمنه، مما ضمّنه في شعره، وذلك على النحو الآتي:

ونقصد بأساليب العيش وطرق الكسب هي المهن التي امتهنتها رعايا الخلافة العباسية إبان زمن الشاعر، كمصادر للدخل او اعتمد عليه أصحابه؛ لتوفية احتياجاتهم المعيشية، ومن ذلك (تجارة الخمر) وانتشار الحانات التي انتشرت في العصر العباسي انتشاراً ملحوظاً، وما صاحب مجالس الشراب من امتهان العزف؛ نظراً لحياة الترف التي اصطبغ بها العصر ككل (الأندلسي، 5 / 203) وتخصّص فيها اليهود غالباً، وهذا واضح مما أورده الشاعر في قوله: (الجهم، د. ت، ص 33):

حَبَّذا مَجْلِسٌ تَدُورُ عَلَيْنَا فِيهِ كَأْسَانِ بَيْنَ نَائٍ وَعُودِ
مِنْ شَرَابٍ يَعَافُهُ الْمُسْلِمُ الْعَفُ وَتَحْظَى بِهِ أَكْثَرُ الْيَهُودِ

إذ تناول الشاعر المفارقة بين سلوك المسلم المتمسك بدينه وغيره ممن انفلت أخلاقياً، على النحو الذي وصم بها تاجر الخمر، وصاحب الحانة، والذي يكون غالباً من اليهود الذين احترقوا تلك التجارة الرائجة في ذلك العصر، واستعملوا كثيراً من العازفين والعازفات، والمغنيين والمغنيات؛ للترفيه عن الزبائن؛ استكمالاً لحالة النشوة التي تتتاب معاصر الخمر. (الجاحظ، 1423، ص 278)

ومن هذا الباب ما أورده الشاعر؛ إذ نزل أحد بيوت الضيافة في (الكرخ)، في ذلك يقول: (الجهم، د. ت، ص 5):

نَزَلْنَا بِبَابِ الْكَرْخِ أَفْضَلَ مَنَزِلٍ عَلَى مُحْسِنَاتٍ مِنْ قِيَانِ الْمُفْضَلِ
أَوَانِسُ مَا فِيهِنَّ لِلضَّيْفِ حَشْمَةٌ وَلَا رَبُّهُنَّ بِالْمَهْيَبِ الْمُجْجَلِ

وكان هدف تلك الدور إحراز المكاسب، فلا غرو أن يلقي الضيف النساء سافرات للمجالسة (أوانس)، فيما يرحب صاحب الدار بالزبائن غير مكترث للعادات المحافظة، أو الاحتشام (ولا ربهن بالمهيبة)؛ كون الهدف الترفيه والتسلية، وإحراز الربح فحسب، وكان الجواري يغنين من وراء ستار، ولكن كان من المبالغة في إكرام

الضيف أن تغني المغنيات بين يدي الستار، وغير ذلك مما يدور في فلك المجلس من الكلام على الأطعمة والمشارب، تخلصاً إلى الندماء ومجالس اللهو والغناء، انعطافاً إلى مراتع الوجدان في دائرة الغزل والهوى والعشق (الأصفهاني، 1420، 11 / 1).

ومن الوظائف الاعتبارية التي تكسب منها أصحابها (الوشاية)، أو من تخصص في نقل الأخبار لصنّاع القرار ومراكز الحكم، وهي مهنة موجودة في كل عصر، وإن اتسمت في عصر العباسيين بالإتقان، والمهارة في استقاء الأخبار؛ طلباً للمكافآت السخية (العسكري، 1408، ص168) وفي ذلك يقول الشاعر مخاطباً المتوكل من محبسه (الجهم، د.ت، ص47):

فَبِأَيِّ ذَنْبٍ أَصْبَحْتُ أَعْرَاضُنَا نَهَبًا يُشِيدُ بِهَا اللَّئِيمُ الْأَوْعَدُ

إذ يلقي الشاعر باللائمة لا على الخليفة الذي حبسه، بل على الواشين ممن نقل له أخباراً مغلوبة؛ أداء لوظائفهم من ناحية، وطلباً للحظوة لدى الخليفة من ناحية أخرى.

وفي الناحية المقابلة، تبدو وظيفة الأمن، وحراسة السجون من الوظائف الشاقة التي يتعرض أصحابها لضغوط ذهنية وبدنية كبيرة، ويتضح ذلك من خلال قول الشاعر (الجهم، د.ت، ص50):

وَمَا لِيْغُودِ الْغَانِيَاتِ دَمِيمَةً وَلِيَلَى حَرَامٍ أَنْ تُدَمَّ عُهْدُهَا

أَلَمْتُ وَجُنُحِ اللَّيْلِ مُرَخِّ سُدُولُهُ وَلِلْسَجْنِ أَحْرَاسٍ قَلِيلُ هُجُودُهَا

فوظيفة الحارس، كما ورد أعلاه، من المهن التي تطالب عدداً من الصفات التي تعتمد على اليقظة والحذر، إذ لا يتمكن الحارس من نيل نصيبه الأوفى من الراحة، مما نجده في قوله: قليل هجودها.

وراجت تجارة أدوات الزينة للنساء، مثل: الخلاخيل التي تضعها المرأة في قدميها، وهذا مانجده في قول الشاعر: (الجهم، د.ت، ص51):

فَلَا تَجَزَعِي إِمَّا رَأَيْتِ قُيُودَهُ فَإِنَّ خَلَائِلَ الرِّجَالِ قُيُودُهَا

وتناول الشاعر المفارقة بين الخلاخيل التي ترن في أقدام النساء في مقابل القيود التي يلبسها السجين، بما يشير إلى أن تجارتها راجت في ذلك العصر، فاستعملتها النساء ضمن أدوات الزينة (القاسم، 1980، ص303).

وبرزت مهنة الطب من المهن التي احتلت مكانة مرموقة في ذلك العصر؛ إذ اعتمد المتوكل على طبيبه الخاص (بختيشوع)، وكال له الهدايا، وزاد في تقديره (الجاحظ، 1424، 7 / 442) حتى صارت المهنة من مصادر الدخل المهمة في ذلك العصر، وقد أورد ابن الجهم زيارة أحد الأطباء له في قوله (الجهم، د.ت، ص106):

تَنَگَّرَ حَالَ عِلَّتِي الطَّيِّبُ وَقَالَ أَرَى بِجِسْمِكَ مَا يَرِيبُ

جَسَسْتُ الْعِرْقَ مِنْكَ فَدَلَّ جَسِّي عَلَى أَلَمٍ لَهُ خَبَرٌ عَجِيبٌ
وأشار الشاعر في البيتين أعلاه إلى مهنة الطب، وآليات فحص المريض، وما في ذلك من قدرة الطبيب على تشخيص الحالة بمجرد جس العرق لدى المريض.

وبرزت أيضا مهنة القضاء في قول الشاعر (الجهم، د.ت، ص108):

إِنَّمَا دَنْبِي إِلَيْهِنَّ الْمَشِيبُ فَمَتَى يَغْفُونَ أَمْ كَيْفَ أَثُوبُ
غَابَ قَاضٍ كَانَ يَقْضِي بَيْنَنَا وَمِنَ الْغِيَابِ مَنْ لَيْسَ يَأُوبُ

وقد وظّف الشاعر مهمة القاضي بصورة تخدم سياق الأبيات؛ إذ جعل الشعر الأسود، علامة الشباب، بمثابة القاضي الذي غاب ولن يعود، في إشارة إلى انتشار مهنة القضاء، وتكسّب القضاة منها.

ولم يغفل الشاعر التكسب من الشعر والأدب، مما شاع في عصره، فأورد (الجهم، د.ت، ص110):

وَرُبَّ مَحْمُودٍ فَعَلَ مَا لَهُ حَسَبُ إِلَّا صَنَائِعُ جَاءَتْهُ مِنَ الْأَدَبِ

إذ ذم الشاعر من لم ينحدر من أصول عريقة، واحتل مكانة مرموقة من الأدب؛ كون العطايا قد انهالت عليه من هنا وهناك.

وهناك من امتهن مهنة الصيد، أو قيادة إحدى المراكب الشراعية التي تمخر عباب الأنهار، وفي

ذلك يقول الشاعر، في وصف أحد المراكب: (الجهم، د.ت، ص115):

فُرْسَانُهُ الْأَنْبَاطُ مِنْ مَيْسَانِ أَهْلِ الرِّيبِ

إذ أشار الشاعر إلى امتهان الأعاجم (الأنباط) هذه المهنة؛ لطول ترمسهم بها، فيبدون فوق سطح المركب كفرسان الوغى.

وكان خلفاء بني العباس يجلون أهل العلم الذين كانوا من أصحاب أعلى الدخول في ذلك العصر، وفي

هذه الشريحة يقول الشاعر (الجهم، د.ت، ص158):

أَخْبَرَنِي قَوْمٌ مِنَ الثَّقَاتِ أُولُو عُلُومٍ وَأُولُو هَيئَاتِ

تَفَرَّعُوا فِي طَلَبِ الْأَثَارِ وَعَرَفُوا مَوَارِدَ الْأَخْبَارِ

وَدَرَسُوا التَّوَرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَأَحْكَمُوا التَّأْوِيلَ وَالتَّنْزِيلَ

تناول الشاعر شرائح أهل العلم، وآلياتهم في العمل، وتخصّصاتهم، من أصحاب العلوم، ودارسي الآثار، فضلا عن المؤرخين العالمين بموارد الأخبار، ودارسي الأديان العالمين بالكتب السماوية، والقرآن الكريم، على النحو الذي يشير إلى تكسب هذه الطائفة من العلوم، واحتلالهم موقعا مرموقا في وجدان الأمة كلها؛ إذ كانوا محل الاستشارة والسؤال.

وقد تحكم بعض الوزراء في أموال الدولة، مما أثر بالسلب على الحياة الاقتصادية في زمن المتوكل، ومنهم (محمد بن عبد الملك الزيات) وزير المتوكل، وفيه يقول ابن الجهم (د.ت، ص39):

وَتَحَكَّمُ الزِّيَّاتُ فِي أَمْوَالِهِمَا وَدِمَائِهِمَا
زَارٍ عَلَى سُنَنِ النَّبِيِّ يَجِدُ فِي إِطْفَائِهِمَا

وقد أشار البيتان إلى اشتداد الوزير على الرعية (الدارقطني، 1986، 2/ 1055) وتحكمه في أموال الدولة، وهو ما أدى إلى ضيق الناس، وتبرمهم بحكمه.

المطلب الثالث

الموارد وبيت المال في ذلك العصر

اعتمدت الخلافة العباسية على سلسلة من الدواوين؛ اقتداء بالفرس في هذا الصدد، وقد أجمل (ابن خلدون) مهامها في قوله: "اعلم أن هذه الوظيفة من الوظائف الضرورية للملك، وهي القيام على أعمال الجبايات، وحفظ حقوق الدولة في الدخل والخرج، وإحصاء العساكر بأسمائهم، وتقدير أرزاقهم، وصرف أعطياتهم في إباناتها، والرجوع في ذلك إلى القوانين التي يرتبها قومة تلك الأعمال، وقهارمة الدولة، وهي كلها مسطورة في كتاب شاهد بتفاصيل ذلك في الدخل والخرج، مبني على جزء كبير من الحساب، لا يقوم به إلا المهرة من أهل تلك الأعمال، ويسمى ذلك الكتاب بـ (الديوان)، وكذلك مكان جلوس العمال المباشرين لها" (ابن خلدون، 1988، 1/ 302)

وقد اعتمدت الدولة على الضرائب التي خصص لها ديواناً كبيراً، فضلاً عن بقية الدواوين التي اعتمدت عليها الدولة، مما أورده الشاعر في هجاء (عبد الملك الزيات) وسياساته الاقتصادية الجائرة (الجهم، د.ت، ص119):

وَعَنْ عُقُولِ النَّاسِ خَارِجَاتٍ يَزِمِي الدَّوَاوِينَ بِتَوَقِيعَاتٍ
بَعْدَ رُكُوبِ الطُّوفِ فِي الْفُرَاتِ وَبَعْدَ بَيْعِ الزَّيْتِ بِالْحَبَّاتِ

وأوضح البيتان حالة الغلاء التي أصابت الناس بالضيق فيما اهتم الوزير بجباية الضرائب، وتحصيل رسوم الدولة، فشحت السلع الأساسية كالزيت الذي بيع (بالحبات) بحسب ما أورد البيتان؛ تندراً باسمه الذي يشير إلى كثرة الزيت بينما ندر وجوده في الأسواق.

وجاءت المصادرات من موارد بيت المال في العصر العباسي؛ إذ كانت الأموال والأموال تصادر في حق المحكوم عليهم، أو بأمر من الخليفة ووزيره، أو المسؤول عن ديوان التوقيعات، وكانت أموال المصادرات

عظيمة، منها ما تمت مصادرتة في سنة فقط نحو (مليون دينار)، مما أورده (مسكويه): "أما المصادرات، فقد صحَّ منها، في مدّة أربعة عشر شهراً، نحو ألف ألف دينار" (مسكويه، 222/5)

ومن ذلك مصادرة أموال عمر بن الفرّج الرُّخْجي (الجهم، د.ت، ص13):

أَبْلِغْ نَجَاحًا فَتَى الْفُثَيَّانِ مَأْلُكَةً تَمْضِي بِهَا الرِّيحُ إِصْدَارًا وَإِيرَادًا

لَنْ يَخْرُجَ الْمَالُ عَفْوَاً مِنْ يَدَيِّ عُمَرَ أَوْ يُغَمَدُ السَّيْفُ فِي فُودَيْهِ إِغْمَادًا

إذ حضَّ الشاعر صاحب ديوان التوقيعات (نجاح بن سلمة) ضرورة الاشتداد على (عمر الرخجي)؛ للإدلال على ما يمتلكه من أموال ونفائس، وكان نجاح مهيباً يتقيه الناس؛ كونه صاحب حيلة، وكانت له أساليب عجيبة في الظفر بالهاربين مما وقّعت عليهم الأحكام (ابن عساكر، 1995، 61/ 452) وأشارت الأبيات إلى كراهية الشاعر للمحكوم عليه، حتى إنه رأى أن إغمد السيف في رأس المحكوم عليه (فوديه) هو الوسيلة الناجعة لحصر ما يملكه.

المطلب الرابع

ترف الخلافة

لقد عاشت الخلافة العباسية في ازدهار اقتصادي كبير، مما انعكس على الحياة الاقتصادية في ذلك العصر، فضلاً عن العطايا التي نثرها الخلفاء نثرًا على الشعراء، ولا أدل على حياة الترف التي عاش فيها الخلفاء العباسيون من إحاطتهم أنفسهم بالنخبة المجتمعية التي عجَّ بها بلاط الخليفة، من الأطباء، كابن ماسويه، الطبيب الخاص للخليفة المأمون (ابن الأثير، 1997، 5/ 579) والشعراء باختلاف طبقاتهم؛ بوصفهم أهم آليات الإعلام في وقتهم؛ إذ تخلد قصائهم أمجاد الخليفة؛ بوصفه راعب الدين والعلم، والفتاح المنتصر في الحروب والمعارك، فضلاً عن الوزراء وقادة الجند، والموسيقيين والعبيد والجواري القينات، وغيرهم من صفوة المجتمع العباسي آنذاك، هو مظهر تفرّد به آل العباس، وفاقوا فيه الدولة الساسانية في أوج عظمتها (العيدروس، د.ت، ص238) مما يشير إلى حالة اقتصادية ممتازة تمتعت بها دار الخلافة، ومن ذلك ما أورده علي بن الجهم يمدح الواصل (الجهم، د.ت، ص13):

مَلِكٌ يَشْقَى بِهَ الْمَالِ وَلَا يَشْقَى الْجَلِيسُ

فنسب الشاعر المال إلى الشقاء، بمعنى أنّ المال يصيبه التعب من ابتدار الخليفة إياه على جلسائه، فيما لا يشقى به الجلساء، بطبيعة الحال؛ لحصولهم على المال من دون عناء. وسجل ابن الجهم كذلك حرص الخلفاء على اقتناء التحف غالية الثمن، مما كان يعجُّ به قصر الخليفة، وهو ما نجده في قوله (الجهم، د.ت، ص14):

بَانَ بِقُرْبِ الْخَلِيفَةِ التُّخَفُ مَحَلُّ صِدْقٍ وَرَوْضَةٍ أُتِفُ

فهو يثني على القصر الذي احتل موقعا مميزا، وما يحويه من نفائس وتحف، فكان كالتحفة المعمارية التي حوت تحفا، ما شهد تأنقا وإنفاقا فاق التصور؛ اقتداء بالحضارة الفارسية، بحسب ما أورد (شوقي ضيف): "ولعلنا لا نغلو بعد ذلك كله إذا قلنا: إنَّ النظم السياسية والإدارية في الدولة العباسية طُبعت بطابع فارسية قوية" (1960، 26 / 3) وهو ما انعكس على الجانب الاقتصادي كذلك. وقال فيه (الجهم، د.ت، ص16):

مَا رَأَى النَّاسُ إِمَامًا أَنَّهُ بَ الْأُمُـ وَالْ نَهَبُكَ

وقد ربط الشاعر بين الممدوح؛ بوصفه إمامًا، وتحكمه في مصارف الدولة المادية، بحيث يعطي بلا رقيب ولا حساب بصورة لم يسبق لها مثيل (أنهب المال نهبك). وقال يصف قُبَّةَ أحد القصور (الجهم، د.ت، ص16):

لَهَا شُرَفَاتٌ كَأَنَّ الرَّيِّعَ كَسَاهَا الرِّيَاضُ بِأَنْوَارِهَا

فقد أنفق الخليفة على قبة القصر، فباتت وكأنها جزء من السماء، ولها نوافذ يدخل منها الضوء الخارجي، فتبدو للناظرين أزهارًا بيضاء اللون وسط لون القبة الذي أبرزها وجلَّأها، مما يعكس ميل العباسيين إلى التأنق في المعمار، واقتدائهم بالفرس في هذا الصدد، ولو كفهم مبالغ طائلة، فكانت "مصاريع الأبواب تُصنع من الخشب المحلَّى بالنقوش، وتتألق النوافذ بالزجاج الملون، وتُزخرف الحيطان بالنقوش المستوحاة من الطير والحيوان والأشجار والأزهار، وقد يُذهَّب السقف والأبواب والحيطان" (ضيف، 1960، 45 / 3) وقال يمدح المتوكل (الجهم، د.ت، ص136):

يَدَاهُ فِي الْجُودِ ضَرَّتَانِ عَلَيْهِ كِلْتَاهُمَا تَغَارُ

لَمْ تَأْتِ النِّمَيْنُ شَيْئًا إِلَّا أَتَتْ مِثْلَهُ النِّسَارُ

وأشار البيتان إلى ما يشبه فقدان الخليفة عقله في العطاء، وإسرافه في الخلع التي يخلعها على الجميع بلا حساب، حتى بدت يدها كضرتين (زوجتيه) تغار كلاهما عليه، فلا تلبث أحدهما أن تفعل شيئًا إلا تبعتها الأخرى، كتصوير من الشاعر لإسرافه الشديد.

وقال في إتلافه للمال (الجهم، د.ت، ص147):

وَلَا يَجْمَعُ الْأُمُـوَالُ إِلَّا لِبَذْلِهَا كَمَا لَا يُسَاقُ الْهَدْيُ إِلَّا إِلَى النَّخْرِ

وَفَرَّقَ شَمْلَ الْمَالِ جُودُ يَمِينِهِ عَلَى أَنَّهُ أَبْقَى لَهُ أَحْسَنَ الذِّكْرِ

فالخليفة يجمع المال؛ ليفرقه مرة أخرى، حتى إنَّ المال لو كان مجموعة مجتمعة من الأشخاص لقل: قد فرق الخليفة شملهم؛ لشدة كرمه، وبذله المال الذي لا يعرف له الخليفة فائدة سوى أنه أتاه لِيُنْفَقَه، وتذكر المصادر في هذا الصدد ما يفوق الخيال، ومن ذلك أن الخليفة العباسي (المهدي) قد فرَّق، من صلب ماله، في يوم واحد، ما يقارب عشرة آلاف ألف دينار (عشرة ملايين) (المسعودي، 1409، 3/ 13) ولم يكن الخليفة مصدر العطايا والهدايا وحده؛ إذ كان لوجهاء الدولة نصيب في الإغداق على الأتباع، ولا سيما الجواري اللواتي نلن النصيب الأوفى من العطاء، وفي ذلك يقول الشاعر (الجهم، د.ت، ص147):

حَبُّوا مَوَالِيكَ يَا بُرْهَانَ وَاعْتَمَرُوا وَقَدْ أَتَتْكَ الْهَدَايَا مِنْ مَوَالِيكَ

وكان موالي (أسياد) الجارية برهان قد اعتمروا، وعادوا من رحلة العمرة، فأهدوها بعض الهدايا، وكانت جارية الخليفة (المتوكل)، وقد أشار البيت إلى حالة الغنى واليسار التي تمتع بها مُلَّاك الجواري. ولا شك أنَّ إحسان الخليفة كان الشغل الشاغل لدى العوام، وكان ما يفيض به عليهم من نعمه وعطاياه محل المديح من الجميع، وفي ذلك يقول الشاعر مادحا الوائق بالله (الجهم، د.ت، ص188):

أَفَاضَ مِنْ عَدْلٍ وَمِنْ نَائِلٍ مَا أَحْسَنَ الدُّنْيَا مَعَ الدِّينِ
وَعَمَّ بِالْإِحْسَانِ مِنْ فِعْلِهِ فَالْإِنْسَانُ فِي خَفْضٍ وَفِي لِينِ

وأشار البيتان إلى سياسة حكيمة اتبعها الخليفة، وهي الجمع بين توفير العدل (أفاض من عدل)، بجانب إنعاش الجانب الاقتصادي للجماهير (من نائل)، ومن ثم، جاء (الإحسان من فعله) مقابلاً لحالة الخفض واللين، ورضا الجماهير عن حالتها المعيشية، وهو ما يشير إلى أنَّ حالة الإسراف في العطايا لم تقتصر على الحاشية ورجال الدولة فحسب، بل كان للرعية نصيب فيها كذلك.

الخاتمة

خلصت الدراسة إلى النتائج الآتية:

1. تعددت أساليب التكسُّب في زمن الشاعر (العصر العباسي)؛ إذ تناول الشاعر المهن التي أوردتها الشاعر في أشعاره، مثل: الطب، القضاء، فضلاً عن المهن اليدوية التي تعتمد على الجهد العضلي، كقيادة المراكب.
2. لوحظ تعدُّد مواضع الأبيات التي تشير إلى مهنة صناعة الخمر، والعزف والغناء، في ديوان الشاعر، على النحو الذي يشير إلى انتشار صناعة الترفيه، بما يتسق مع الطابع له.

3. انتشر التكسب من الأعمال الاستخباراتية (الوشاية)، بحيث برز حرص المسؤولين على معرفة الخفايا مما يدور وراء الستار، مقابل مكافآت متميزة للوشاة.
4. اعتمد العلماء والأدباء على التكسب من العلم والأدب، ونالوا مكانة مجتمعية كبيرة في المجتمع، وكانوا محل تكريم الخلفاء، مثل: الطبيب (بختيشوع) الذي كان يضارع الخليفة (المتوكل) في اللباس والمأكل.
5. مثلت أعمال الجبايات، وتحصيل الرسوم، أحد أهم مصادر بيت المال في العصر العباسي، مما أشار له المؤرخون، كابن خلدون وغيره؛ إذ قسم العباسيون الهيكل الإداري إلى دواوين، عنيت فيها دواوين بعينها بالجوانب الاقتصادية، مثل: الضرائب والرسوم.
6. لوحظ في ديوان الشاعر تناولته الوزير (محمد بن عبد الملك الزيات) في عديد من المواضع بحيث انتقد أدائه الاقتصادي الذي أضّرّ بالأسعار، ووصل إلى أن افتقد الناس بعض السلع الرئيسية،
7. مثلت أموال المصادرات أحد الروافد الاقتصادية للدولة؛ إذ اختص ديوان التوقيعات بمصادرة ممتلكات المحكوم عليه، وعكس شعر الشاعر لجوء صاحب الديوان أحياناً إلى ممارسة الضغوط على المحكوم عليه؛ لإدلاله على أمواله.
8. أبرز ديوان الشاعر حياة اللهو والترف التي عاشها خلفاء بني العباس، وكبار قادتهم، ومن أحاطوا بهم من الحاشية، على النحو الذي مثلّ توجهها اقتصادياً للدولة، فيما شملت عطايا الخليفة الجميع، سواء من المقربين أو غيرهم.
9. جاء الأداء الاقتصادي للدولة العباسية إجمالاً متأثراً بدولة الفرس التي سبقتها؛ إذ حرص الخلفاء على التأنيق والإسراف المبالغ فيه؛ لكي تكون دولتهم كدولة (فارس) سواء بسواء، وهو ما حمل وجهاً حضارياً، مثل محصلة نهائية للأداء الاقتصادي الذي مثلّ الوجه الآخر.

Sources and references

- Ibn al-Atheer, p. (1997). Al-Kamil fi al-Tarikh, ed.: Omar Abd al-Salam Tadmuri, Dar al-Kitab al-Arabi, (1st edition), Beirut, Lebanon.
- Ibn al-Jawzi, A. (1997), News of the Strangers and the Magnificent. Edited by: Bassam Abdel Wahab Al-Jani, (1st edition), Lebanon: Dar Ibn Hazm.
- Ibn Taghri Bardi, i. (Dr. T), Source of Kindness in the Ruler of the Sultanate and the Caliphate, edited by: Nabil Muhammad Abd al-Aziz Ahmed, (Dr. T), Cairo - Egypt: Dar Al-Kutub Al-Misria.
- Ibn Khaldun, A. (1988), Diwan al-Mubtada wa al-Khabar fi Tarikh al-Arab and Berber, and those of great importance to their contemporaries, ed.: Khalil Shehadeh, (2nd ed.), Dar al-Fikr, Beirut.
- Ibn Khallikan Al-Barmaki Al-Arbli, Abu Al-Abbas Shams Al-Din Ahmad bin Muhammad bin Ibrahim bin Abi Bakr (d. 681 AH), Fiat Notables and News of the Sons of the Age: Editor: Ihsan Abbas, Publisher: Dar Sader - Beirut.
- Ibn Abd al-Barr, i. (1992), Absorption fi Ma'rifat al-Ashab, ed.: Ali Muhammad al-Bajjawi, (1st edition), Beirut - Lebanon: Dar Al-Jeel.
- Ibn Asakir, A. (1995), History of Damascus, ed.: Amr bin Gharamah Al-Amrawi, (D. I.), Dar Al-Fikr for Printing, Publishing and Distribution, (D. N.).
- Al-Isfahani, A. (1420). Lectures of writers and dialogues of poets and rhetoricians, Dar Al-Arqam Bin Abi Al-Arqam Company, (1st edition), Beirut.
- Al Salem, A.; Huynh, K. (2014). The environment and its impact on the language of Ali bin Al-Jahm, semantic analysis: description of the camel as a model, Journal of the College of Basic Education, Al-Mustansiriya University, (p. 81), Iraq.
- Al-Andalusi, A. (1404), Al-Eqd Al-Farid, Dar Al-Kutub Al-Ilmiyyah, (1st edition), Beirut.
- Al-Basha, Abdul Rahman, Ali bin Al-Jahm, His Life and Poetry, Dar Al-Maaref, Egypt.
- Al-Thaalabi, A. (d.t.). Improving the ugly and making the beautiful ugly, ed.: Nabil Abdel Rahman Hayawi, Dar Al-Arqam bin Abi Al-Arqam, (ed.), Beirut, Lebanon.
- Al-Jahiz, A. (1423). Literary Letters, 2nd edition, Al-Hilal House and Library, Beirut.
- Al-Jahiz, A. (1424). Animals, Dar Al-Kutub Al-Ilmiyyah, (2nd edition), Beirut.
- Al-Jahm, A. (D. T.), Diwan of Ali bin Al-Jahm. Edited by: Khalil Mardam Bey, (2nd edition), Beirut - Lebanon: Arab Heritage Committee.
- Al-Hamid, K.H. (1995), Political Economy Foundations and Principles, (Ed.), Aleppo: Aleppo University Publications, Faculty of Law.
- Kharmash Muhammad (1995), Social Reference in the Formation of Literary Discourse, Tunisia, University of Tunisian Journals.
- Al-Khatib Al-Baghdadi, A. (2002), History of Baghdad, ed.: Bashar Awad Marouf, (1st edition), Beirut - Lebanon: Dar Al-Gharb Al-Islami.
- Khamas, K. (D. T) Cultural Councils in the City of Baghdad,(D. I), (D. M): (D. N).
- Al-Daraqutni, A. (1986). The Compound and the Different, edited by: Muwaffaq bin Abdullah bin Abdul Qadir, Dar Al-Gharb Al-Islami, (1st edition), Beirut.
- Guest, Sh. (1995), History of Arabic Literature. (1st edition), Egypt: Dar Al-Maaref.

- Al-Tarwanah, c. (2004). Economic Life in the Poetry of the First Abbasid Era 123 AH-232 AH, PhD thesis, College of Arts, Mu'tah University, Department of Arabic Language and Literature, Jordan.
- Abdullah, A. (2012). Cultural manifestations in the poetry of Ali bin Al-Jahm, Journal of Human Sciences, University of Babylon (No. 13), Iraq.
- Al-Askari, A. (1408). Al-Awael, Dar Al-Bashir, (1st edition), Tanta.
- Attia, A. (2021). Cultural Dimensions in the Poetry of Ali Bin Al-Jahm: An Analytical Study, Journal of the Faculty of Arabic Language in Itay Al-Baroud, Al-Azhar University (No. 34), (Part 1), Egypt.
- my age. (2015). Characteristics of Poetry in the Abbasid Era, Nile Valley Journal for Human, Social and Educational Studies and Research, Cairo University - Khartoum Branch - Faculty of Arts, (Vol. 8), (No. 8), Egypt.
- Al-Aidaroos, M. (d.t.). The Political and Cultural History of the Abbasid State, Dar Al-Kitab Al-Hadith, (ed. i.), (d. n.).
- Al-Ghadad, M. (2014). The cultural impact on the poetry of the first Abbasid era, PhD thesis, University of Basra, College of Arts, Iraq.
- Farroukh, A. (1981), History of Arabic Literature, Abbasid Eras, Modern Literature: Until the End of the Fourth Century AH, 132 AH-399 AH (750 AD-1008 AD). (4th ed.), (D.N.).
- Al-Qasim, S. (1980). Proverbs, edited by: Abdel Majeed Qatamish, (1st edition), Dar Al-Mamoun Heritage, (D.N.).
- Al-Marzbani, M. (1982), Dictionary of Poets. Edit: F. Karanko, (2nd edition), Beirut - Lebanon: Al-Qudsi Library, Dar Al-Kutub Al-Ilmiyyah.
- Al-Mustasimi, M. (2015), The unique pearl and the bottom line. Edited by: Kamel Salman Al-Jubouri, (1st edition), Beirut - Lebanon: Dar Al-Kutub Al-Ilmiyyah.
- Al-Masoudi, A. (1409). Meadows of Gold and Substantial Minerals, ed.: Asaad Dagher, (1st edition), Dar Al-Hijra, Qom.
- Miskawayh, 2000, The Experiences of Nations and the Succession of Determinations, edited by: Abul-Qassem Emami, (2nd ed.) Soroush, Tehran.
- Al-Masry, R. (1993), The Origins of Islamic Economics, (ed.), Damascus: Dar Al-Qalam, Beirut - Lebanon: Dar Al-Shamiya.
- Al-Yaqoubi, A. (D.T.). Al-Alaq Al-Nafisah, followed by Kitab Al-Buldan, (d. i), (d. n).